# تجدد الإساءات المسيحية وتصريحات البابا.. أهدافها وآثارها

أ.د / جعفر عبد السلام
الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية

إن الهجوم على الرسول ﷺ ليس جديدا وإنما هو قديم، وجدت بذوره على ألسنة الكفار والمشركين منذ أن بعث فى مكة ولم يتوقف هذا الهجوم حتى الآن، وإن اختلفت أساليبه والطرق التى يتم بها فى كل مرحلة من مراحل التطور. فى البداية اتخذ الهجوم شكلا مباشرا حيث كان أول من هاجم الرسول، عمه أبو لهب، فعندما وقف الرسول ﷺ على جبل الصفا يدعو قومه إلى الإسلام فذكر لهم بأنه الصادق الأمين عندهم إذ قال لهم: إذا أخبرتكم أن خيلاً بخارج الوادى ستقوم بالاعتداء عليكم فهل أنتم بمصدقى ؟ قالوا بلى، ما علمنا عليك كذبًا ولما قال لهم أنه نبيهم الذى أوحى إليه بين يدى عذاب أليم، فإذا بعمه أبو لهب يقول له، ألهذا جمعتنا، بئس ما جمعتنا عليه، وقد تكفل القرآن الكريم بالرد على أبى لهب، حيث قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾[المسد:١-٥]. لقد رد القرآن نفسه على أبى لهب وتوعده هو وزوجته التى - اشتهرت بوضع الشوك والحطب عليه ﷺ وفى طريقه - بعذاب شديد فى الآخرة.

وطوال ثلاثة عشر عامًا قضاها الرسول ﷺ فى مكة لم يخل يوم من التعدى عليه بالقول وبالفعل معًا، حيث انتهت هذه الأعوام بمؤامرة دبرها حكام مكة وكبار القوم فيها لاغتيال الرسول ﷺ بسيوف شباب أقوياء اختارهم القوم من كبار القبائل والبطون التى تعيش فى مكة لكى يتفرق دمه بين القبائل، ويهمنا هنا تتبع مختلف الافتراءات القديمة ضد النبى وضد الإسلام. وسنعتمد على القرآن الكريم فى استعراض هذه الصور.

يقول سبحانه وتعالى فى سورة الفرقان ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الفرقان:٤-٦].

فهنا اتهام صريح للرسول بأنه اخترع القرآن الكريم، أى أن القرآن ليس رسالة إلهية،

وإنما هو منتحل من الرسول وعلمه إياه آخرون، مثل الراهب بحيرا الذى قابله مرة أو مرتين فى رحلاته التى كان يقوم بها إلى الشام مع أعمامه، ولا يمكن أن تكون مثل هذه المقابلات العرضية - والثابت أنها تمت قبل بعث الرسول ﷺ - كافية لإعطاء الرسول ﷺ كل هذه السور والآيات التى يتضمنها القرآن الكريم، وكل هذه المعلومات التى أنزلها الله على النبى ﷺ ضمنًا ونطق بها فى السنة القولية أو عمل بها فى السنة الفعلية.

وكانوا يشيرون إلى صهيب على أنه هو الذى يعلم الرسول ويلقنه القرآن، والقرآن الكريم رد على ذلك بقوله: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾[النحل:١٠٣].

والواقع أن دعوى انتحال القرآن دعوى قديمة ولكنها تتجدد حتى الآن. وللأسف فإن المستشرقين يجددون هذه الدعوى حتى الآن وهذه الفرية انتقلت بشكل مكثف فى الثقافة الغربية بشكل عام وللأسف تضمنتها المناهج الدراسية الغربية فى أغلبها. ولقد حضرت مؤتمرًا نظمته وزارة التعليم فى إحدى مدن الشمال الإيطالية وهى مدينة (سدنة) وقال أحد الأساتذة الذين يشاركون فى تأليف الكتب التى تدرس فى المدارس الإيطالية: عادة تأتى المعلومات عن الأديان فى كتب التاريخ أنه كتب بخط يده أن القرآن تأليف النبى محمد ﷺ وأنه بعد مراجعة ومقابلة العديد من العلماء المسلمين الذين يثق بهم، قد تبين له خطأ ما كتب، وهذا غريب فى الوقت الذى تميز الغرب علينا على الأقل فى الوقت الحاضر بالموضوعية وبتقصى الحقائق جيدًا قبل تسجيلها، وهذا المؤلف نفسه اعترف بأنه وضع الكثير من الرسوم التوضيحية الخاطئة عن الإسلام وتبين له فيما بعد أنها غير صحيحة.

فالادعاء ضد النبى محمد ﷺ بأنه ليس رسولا من عند الله، هو ادعاء قديم، قاله الكفار أولاً وروج له المستشرقون، ولا زال أكبر التهم وأعظمها إفكا حتى الآن.

أما الافتراءات الأخرى القديمة فإننا نذكر منها ما يقول القرآن الكريم ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ...﴾ [الفرقان:٧]. وللأسف هذه الدعوى الخبيثة لازالت تتردد حتى الآن. لقد كان لكل نبى معجزات حسية اختلفت من رسول إلى آخر وأن سيدنا عيسى عليه السلام قد آتاه الله

أكبر قدر من هذه المعجزات الحسية، وكذلك موسى عليه السلام. كان عيسى يبرئ الأكمه ويحيى الموتى، وينبئ الناس بما يدخرون في بيوتهم. وكان موسى يلقى عصاه فتتحول إلى حية ضخمة تخيف الناس وتلقف ما حاول السحرة صناعته من حبال وعصى كانت تتحول في نظر الناس إلى ثعابين. أما الرسول محمد ﷺ فكانت معجزته الكبرى هي القرآن الكريم الذي أخبر بكثير من الأحداث القديمة والأحداث التي وقعت فيما بعد مثل التنبؤ بأن الروم سيغلبون الفرس، وكذلك التنبؤ بانتصار الإسلام وإظهاره على الدين كله، بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[الصف:٩] كذلك تنبأ الرسول ﷺ باستخلاف المسلمين في الأرض، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[النور:٥٥].

وقد قام المرحوم الدكتور طه حسين بتتبع الكثير من الصحابة الكبار في حياتهم وأعمالهم قبل الدخول في الإسلام وبعده، وبين صدق وعد الله لهم، طبق ذلك على عمار بن ياسر، وعلى بلال بن رباح، وعلى صهيب الرومي وسلمان الفارسي هؤلاء الذين انتقلت حياتهم من العبودية والمهانة، إلى قمة المجد والسلطة والصدارة للمجتمع الإسلامي ولدولة الإسلام الكبرى بعد ذلك.

## دعوى السحر والهذيان:

قال الله سبحانه وتعالى مشيرا إلى هذه الدعوى ومفندا لها﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾[الفرقان:٨-١١] وللأسف فإنه قد ورد في بعض كتب السنة أن الرسول قد سحرته امرأة يهودية وألقى بالسحر في أحد الآبار في المدينة وإن الرسول تأثر بذلك. وهذا القول لا أساس له من الصحة في تقديري، ومهما كان الذي أورده، فإن الله سبحانه وتعالى قد تكفل بحفظ النبي ﷺ بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[المائدة:٦].

دعاوى البابا بنديكت السادس عشر فى محاضرته التى ألقاها يوم ١٢ سبتمبر ٢٠٠٦ فى جامعة ريجنز بورج بألمانيا:

مما يؤسف له أن البابا ألقى محاضرته عن العلاقة بين الإيمان والعقل فى هذه الجامعة اللاهوتية وإذا به يقحم الإسلام فيها بعبارات سيئة تدل على أنه لم يدرس الإسلام ولم يفهمه.

والعبارة منقولة من كتاب أصدره الأستاذ عادل خورى وهو لبنانى الجنسية ويشرف على إصدار موسوعة تحت عنوان "المسيحية والإسلام فى الحوار والتعاون" هو وقسيس آخر يدعى مشير باسيل عون[1].

والأستاذ خورى هو الذى أورد الحوار الذى دار بين القيصر البيزنطى مانويل الثانى وبين أحد المثقفين المسلمين عام ١٣٩١م أى فى أواخر القرن الرابع عشر.

وننقل من هذا الحوار ما أثار اهتمام البابا، وجعله يحكم على الإسلام بأنه قرين الإرهاب، فالقيصر مانويل الثانى يسأل محاوره "أرنى الجديد الذى جاء به محمد، إنك لن تجد إلا أشياء شريرة وغير إنسانية مثل أمره بنشر الدين الإسلامى بحد السيف، وهذا أمر يتناقض مع جوهر الله وجوهر الروح".

الأستاذ خورى يتقن الألمانية ويكتب بها والبابا بنديكت السادس عشر ألمانى قرأ كلام خورى بالألمانية، ويعتمد عليه، رغم أن العديد من المفكرين الألمان كتبوا بالألمانية ولم يكلف سيادته وهو الأستاذ الجامعى بأن يرجع إلى أى منهم، رغم أن بعضهم منصف بل ودخل الإسلام عن قناعة كاملة، مثل الأستاذ مراد هوفمان.

---

(١) تنشر هذه الموسوعة المكتبة البوليسية بجونية لبنان، والعدد الأول فيها صدر بعنوان "العدل فى المسيحية والإسلام وشارك فى الكتابة فيه من المسلمين الدكتور محمود حمدى زقزوق، والدكتور رضوان السيد من لبنان والدكتور سعود المولى. ثم توالت الأعمال فى هذه السلسلة بعد ذلك. وبعض ما ينشر فيها عن الإسلام حسن وطيب والكثير منها شىء من النوع الذى يمكن أن يطلق عليه "دس السم فى العسل" فقد انتقد بشدة نظام الذمة واعتبره يقوم على التمييز بين المسلمين وغير المسلمين، مع أنه فى نفس الوقت انتقد الموقف المسيحى من الذى يربط الإسلام والإرهاب فى المرجع الأول الذى أشرنا إليه.

**وبالنسبة لهذه التهمة القديمة والحديثة على السواء بشأن أمر الله نبيه أن ينشر الإسلام بالسيف فيمكن الرد عليها بالآتى:**

**أولا**: العقيدة أمر داخلى يتمثل فى علاقة بين الإنسان وربه فهى شىء فى القلب وبالتالى لا يمكن أن تفرض وإنما الله سبحانه وتعالى يتجلى بها على عباده فيؤمنون بها، وهناك مظاهر لها، لكن المهم هو الجوهر وهى مسألة لا تفرض بالسيف ولا بغير السيف ـ لذا ينبهنا الإسلام بوضوح إلى هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة :٢٥٦]، كما يقول تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف:٢٩]. وهكذا نجد آيات كثيرة فى القرآن الكريم بنفس المعنى.

**ثانيا**: الممارسة العملية ترى أن الرسول ﷺ لم يكره أحداً على الدخول فى الدين، وإنما كان يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وسأورد هنا أقوالا لمنصفين غربيين فطنوا إلى هذه الحقيقة وشهدوا بها بوضوح. وسأبدأ برأى عادل خورى نفسه ــ والذى نقل البابا الحديث الذى أشرنا إليه فى البداية ــ فى كتاب "العدل فى المسيحية والإسلام" يقول: (هناك مسيحيون يميلون إلى اعتبار المسلمين المتعصبين الذين يدعون إلى الجهاد وتربط وسائل الإعلام بينهم وبين عمليات الإرهاب، كالممثلين الحقيقيين للإسلام. ويغفلون عن الأكثرية فى العالم الإسلامى التى تحب السلام وتدعو إليه. وهكذا يتم دوما الربط بين الإسلام والسيف).

كذلك يقول الكاتب الإنجليزى توماس كارليل ( إن اتهامه ــ أى سيدنا محمد ﷺ ــ بالتعويل على السيف فى حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم؛ إذ ليس مما يجوز فى الفهم أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل به الناس أو يستجيبوا له، فإذا آمن به من يقدرون على حرب خصومهم، فقد آمنوا به طائعين مصدقين، وتعرضوا لحرب على غيرهم قبل أن يقدروا عليها".

كما تنبه العديد من الكتاب الغربيين إلى ذلك نذكر منهم: جوستاف لوبون فى كتابه حضارة العرب وهو يتحدث عن سر انتشار الإسلام فى عهده وفى عصور

الفتوحات من بعده ـ "قد أثبت التاريخ أن الأديان لا تفرض بالقوة ولم ينتشر الإسلام إذن بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التى قهرت العرب مؤخرا كالترك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار فى الهند ـ التى لم يكن العرب فيها غير عابرى سبيل ـ ما زاد عدد المسلمين إلى خمسين مليون نفس فيها.. ولم يكن الإسلام أقل انتشارا فى الصين التى لم يفتح العرب أى جزء منها قط ، وسترى فى فصل آخر سرعة الدعوة فيها، ويزيد عدد مسلميها على عشرين مليونا فى الوقت الحاضر".

والواقع أن القراءة المتأنية لآيات الكتاب الكريم ولسيرة النبى محمد ﷺ ترى كيف أن الإسلام بعيد عن هذه التهمة.

أما الهجوم الجديد الذى قد لا نراه كثيرا فى الكتابات السابقة وإنما ركز عليه البابا بنديكت السادس عشر فهو ما يتصل بأن المشيئة الإلهية فى الإسلام منقطعة عن الفعل، وأن تصرفات الله سبحانه وتعالى لا تخضع للعقل ولا للمنطق وهذه فرية كبيرة، وقد اعتمد فيها البابا على ما قرره خورى (إن الله فى العقيدة الإسلامية مطلق السمو ومشيئته ليست مرتبطة بأى من منقولاتنا ولا حتى بالعقل". ويدلل خورى على ذلك بما نقله عن مستشرق آخر (أرنالدز) على لسان ابن حزم الذى يزعم أن الله لا يتقيد حتى بكلام، وأنه لا يجب عليه أن يوحى إلينا بالحقيقة، وإن أراد جعل الإنسان عابدا للأصنام.

والواقع أن هذه الفرية ليس لها أى أصل فى الإسلام وإنما هى فى جوهر الأديان الأخرى وخاصة المسيحية حيث عبر عن ذلك القديس النصرانى "أنسليم" بقوله إن الإيمان لا يحتاج إلى إعمال عقل".

إن العقل فى الإسلام هو أساس التكليف، ولا تقبل عبادة فيه إلا من عاقل، بل لابد من كمال العقل لقبول العمل. يصدق هذا على الدخول فى الإسلام نفسه فيجب أن يكون من يريد الدخول فى الإسلام عاقلا، ومن يؤدى الصلاة عاقلا، وكذا فى سائر الفروض والتكاليف، لذا يرفع التكليف عن المجنون والنائم وكل من فقد عقله.

من ناحية ثانية نجد أن المعجزات التى أتى بها الأنبياء السابقون كانت معجزات

مادية. أما معجزة الإسلام الخالدة فهى تقوم على العقل. القرآن الكريم يحتاج إلى التدبر والتفكر فى آيات الله المنظورة والمسطورة على حد سواء.

ونجد الإمام محمد عبده يعبر عن ذلك بوضوح فى قوله "إن العقل هو ينبوع اليقين فى الإيمان بالله وعلمه وقدرته والتصديق بالرسالة"، كما يقرر أن الإسلام دعا الناس إلى النظر فى العقيدة بعقولهم، فهو معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضى فيها، وأطلقت له حق النظر فى أنحائها، ونشر ما انطوى فى أثنائها، وأننا إذا قدرنا عقل البشر قدره، وجدنا غاية ما ينتهى إليه كماله إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التى تقع تحت الإدراك الإنسانى"[1].

والواقع أن الله سبحانه وتعالى أمرنا بكل الفضائل التى تتفق مع العقل والمنطق، وقد احترم الإسلام العقل الإنسانى وجعله فى أعلى منزلة وأرفع مكان، وجعل الإنسان الذى لا يستخدم عقله بمنزلة إنسان قد تنازل عن إنسانيته، وجعل عدم استخدام العقل الإنسانى خطيئة كبرى سوف يسأل عنها الإنسان يوم القيامة.

والله قد بين لنا فى القرآن الكريم أنه خلق كل شىء بقدر، وأن كل ما فى السموات والأرض يسير وفق سنن كونية. وأن كل خلق الله مرتبط بحكم بالغة. وقد دعا القرآن الكريم الناس إلى النظر فى الكون ودراسته والتفكير فى آيات الله وفى العالم وفى الإنسان. وأما أن إرادة الله وعلمه وحكمته لا تحدها حدود فهذا أمر منطقى لأنه هو نفس الخالق، ولكن المسلم لا يفهم ذلك مطلقا أن تصرفات الله لا تتفق مع العقل والمنطق.

وفى ضوء هذه التعاليم القرآنية سار علماء المسلمين، فحجة الإسلام الغزالى يقول: "العقل أنموذج من نور الله" ويقول الجاحظ إن العقل وكيل الله عند الإنسان. كما قرر علماء التوحيد أن النظر العقلى يعد أول واجبات المسلم فى مسائل الاعتقاد.

---

(١) راجع: الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده، وراجع المؤلف الذى أصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وزارة الأوقاف بجمهورية مصر العربية بعنوان حقائق الإسلام فى مواجهة شبهات المشككين، والذى أشرف على إصداره والتقديم له أ.د. محمود حمدى زقزوق وعلى وجه الخصوص دراسات الدكتور محمد عمارة ص ٤٠٠ بعنوان "الشبهة الرابعة والستون" حول تناقض النقل ـ القرآن ـ مع العقل والدراسة التى كتبها أ.د. على جمعة بعنوان: الشبهة الخامسة والستون، الإسلام انتشر بالسيف ويحبذ العنف ٤٠٨.

وقد اطلع المسلمون على الفلسفات القديمة ومنها اليونانية وناقشوها مناقشة عقلية وصانوها من الضياع، وقد تعرفت أوروبا على الفلسفة اليونانية لأول مرة عن طريق العلماء المسلمين من الترجمات العربية.

واعتمدت أوروبا على آراء الفيلسوف العظيم ابن رشد بصفة خاصة فى دعم الحركة العقلية التى مهدت لعصر النهضة الأوروبية لما عرفوه لديه من تقدير لا حد له للعقل والمعقول.

ومع هذا الاعتداد بالعقل والمعقول فإن المسلمين لم ينسوا أن الله هو الخالق الأعظم مالك الملك، وأنه هو الذى وهبهم العقل ولكنه لم يسلبهم الإرادة بل حملهم المسئولية بجعله الإنسان خليفة لله فى الأرض ليعمرها بالعلم، ولا علم بدون عقل.

والواقع أن هناك ملابسات عديدة قد أحاطت بمحاضرة البابا أولها أنه قالها فى ذكرى العدوان على الولايات المتحدة وفى الاحتفالات التى جرت فى الولايات المتحدة وغيرها فى ١١ سبتمبر، فهل نباعد بين الغرض السيئ للبابا وخطابه فى هذه المناسبة؟ معروف أن هذه الواقعة نحت بالتاريخ منحى جديدا جوهره الهجوم على الإسلام ونبيه واتهام المسلمين بالإرهاب وبحب العنف ورفض الآخرين، فماذا يريد البابا من التذكير هنا وفى هذه المناسبة بدعاوى قيام الإسلام على السيف، وعدم احترامه للعقل؟!

إننا قدمنا ردا هادئا على هاتين الدعويين، ولكن من الواجب علينا كمسلمين أن نظل ندعو إلى الله على بصيرة وبالحكمة والموعظة الحسنة، وأن نبين فضائل الإسلام وغلوه على كل ما يراد به النيل منه.

❊ ❊ ❊